الذوق الجمالي في السياق التربوي

البشير الإبراهيمي نموذجا[1]

Aesthetic Taste in Education:

Al-Bashir Al-Ibrahimi as a Model

ط.د محمد هيبة

د ياسين بريك

عنوان المداخلة: الذوق الجمالي في السياق التربوي – البشير الإبراهيمي نموذجا

اسم الباحث والدرجة العلمية: محمد هيبة – طالب دكتوراه (التسجيل الثالث).

مؤسسة الانتماء: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – كلية أصول الدين

>> مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان

عنوان النشاط: ملتقى القيم الجمالية في النص التربوي للفكر الإسلامي – الغرب الإسلامي نموذجا

>> المحور الثاني: موقع الجمال في منظومة القيم بين الإسلام والغرب

تاريخ النشاط: 05/11/2024 م

الجهة المنظمة: كلية أصول الدين بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ومخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان

[1] مداخلة ضمن ملتقى "القيم الجمالية للنص التربوي في الفكر الإسلامي - الغرب الإسلامي نموذجا"

الذوق الجمالي في السياق التربوي – البشير الإبراهيمي نموذجا[2]

Aesthetic Taste in Education: Al-Bashir Al-Ibrahimi as a Model

ط.د محمد هيبة

د ياسين بريك

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى إبراز أهمية الذوق الجمالي في العملية التربوية كقيمة متأصلة في النفس الإنسانية، تتجسد ملامحها الفريدة في تصورات كل حضارة. ويركز البحث على تحليل فكر الشيخ البشير الإبراهيمي، من خلال نصوصه التربوية، كونه نموذجاً يُحتذى في تكريس هذه القيمة. وتتناول الدراسة ثلاثة محاور أساسية تعكس تجليات الذوق الجمالي في فكر الإبراهيمي، هي: الارتقاء بالبيئة التربوية، وجمال الاقتداء، والتفنن في الاحتفالات.

This study aims to highlight the importance of aesthetic taste within the educational process as an intrinsic value in human nature, uniquely embodied in each civilization's perspectives. The research focuses on analyzing the thought of Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi through his educational writings, presenting him as a model in the dedication to this value. The study explores three key dimensions that reflect the manifestations of aesthetic taste in Al-Ibrahimi's thought: the elevation of the educational environment, the beauty of role modeling, and the artistry in celebrations

.

[2] مداخلة ضمن ملتقى "القيم الجمالية للنص التربوي في الفكر الإسلامي - الغرب الإسلامي نموذجا"

مقدمة:

تذوُّقُ الجمال شعورٌ لازَمَ الإنسانَ منذ وجوده على هذه البسيطة، فمهما كان الإنسان بَدَائيا أو حَضَريا فإن تفاعله مع الطبيعة من حوله ومظاهرِها البديعة قد شكل تصورا ورؤية لهذا الوجود، وسجل عليه انطباعات تبعا لذلك. وقد خلدت الإنسانية عبر تاريخها الممتد اهتماماً بالجمال ومظاهره، تجلى في كل حضارة على نحو يعكس تصوراتها الفريدة وتفاعلها مع القيم الجمالية التي تستشعرها، يشهد لها الإرث الثقافي والفني الذي تركته للأجيال المتلاحقة، وهو ما يدل على أن الجمال كان على الدوام مكوناً أساسياً يغذي الروح الإنسانية ويوجه سلوكها وفكرها.

في عالمنا المعاصر تُعيد التحولات المادية والتكنولوجية والثقافية تشكيل مفاهيم الجمال من جديد، وفوق إعادة التشكيل فإنها تسعى لتجعله قالبا واحدا يهيمن على البشرية كلها، مما يطرح تحديات جديدة أمام الذوق الجمالي؛ وتظهر هذه التحديات في كيفية تفاعل المجتمعات مع ظاهرة استبدال الجماليات التي ورثتها بأخرى تعزز مظاهر قد لا توصف عند المعاينة إلا بالقبح، وهي تُقدَّم على أنها أيقونات للمَثَل الأعلى في الجمال.

من هذا المنطلق، يكتسب الحديث حول الذوق الجمالي في السياق التربوي أهمية متجددة في مواجهة التحدي الراهن الذي يهيمن فيه السعي وراء المنفعة المادية على الاعتبارات القيمية والمعنوية. كما تبرز الحاجة الماسة إلى استعادة وتعزيز الذوق الجمالي كجزء لا يتجزأ من عملية التعليم والتربية، ليس على أنه مجرد وسيلة لتحقيق التوازن والانسجام الداخلي للفرد، بل أيضاً كأساس لبناء مجتمع راق في أحاسيسه وذوقه، وفيّ بقيمه ومبادئه.

في ضوء هذه التحديات، يكون الرجوع إلى الأعلام والمفكرين الذين أسهموا في تشكيل شخصية الأمة، وكانوا جزءا من خبرتها المعرفية المتراكمة عبر التاريخ ضرورياً لاستيعاب طرحها لمفهوم الذوق الجمالي عموما وضمن السياق التربوي خصوصا.

من بين هذه الشخصيات، يقف البشير الإبراهيمي نموذجا يُحتذى به في ترسيخ قيم الحُسن والذوق الجمالي في التفكير والممارسة التربوية. ولأجل هذا نطرح سؤالًا ونحاول الإجابة عليه من خلال مداخلتنا هذه: كيف تمثل حضور الذوق الجمالي عند البشير الإبراهيمي تربويًا؟

للإجابة على سؤالنا سنعتمد المنهج الاستقرائي لآثار البشير الإبراهيمي، لنخلص إلى أخذ تصور عن مدى العناية بالذوق الجمالي في الفكر التربوي للإمام، وسنقسم المداخلة إلى عنصرين رئيسين:

- أولا: البشير الإبراهيمي ومفهوم الذوق الجمالي في السياق التربوي
- ثانيا: ملامح الذوق الجمالي في الفكر التربوي للبشير الإبراهيمي

تسعى المداخلة إلى التركيز على توظيف نصوص البشير الإبراهيمي وجعلها محور المقالة، بيانا لما تحمله من معنى عميق وأسلوب بليغ، ذلك أن من الأهداف كشف المضامين الجمالية في النص التربوي، على أننا لن نوغل في التحليل الأدبي للنصوص المختارة بقدر ما ننطلق منها لتحليل فكر البشير الإبراهيمي ونظرته للقيم الجمالية من خلال نماذج عينة تَسَعُها مداخلتُنا، وتُختتم المقالة بخلاصة جامعة لأهم الملاحظ والتوصيات.

أولا: البشير الإبراهيمي ومفهوم الذوق الجمالي في السياق التربوي

- **البشير الإبراهيمي**

محمد البشير بن محمد السعدي الإبراهيمي، ولد في 14 يونيو 1889 بقرية "رأس الوادي" قرب سطيف بالجزائر. تعلم القرآن في سن مبكرة وتعمق في العلوم الإسلامية واللغة العربية على يد عمه الشيخ المكي الإبراهيمي، عام 1911 انتقل الإبراهيمي إلى المدينة المنورة، وخلال إقامته درس على يد كبار العلماء، كما التقى بشخصيات بارزة كان على رأسها الإمام عبد الحميد ابن باديس، الذي سيكون رفيق درب الدعوة، وهنالك اتقدت فكرة جمعية العلماء.

بعودته إلى أرض الجزائر أسس رفقة الشيخ عبد الحميد بن باديس والعلماء الذين آمنوا بالفكرة "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" عام 1931، التي رفعت شعار الإسلام والعروبة والجزائر وكان وتولى رئاستها بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1940.

أنشأ جريدة "البصائر" التي مثلت لسان الجمعية وحالها، كما كان له فضل تأسيس معهدٍ بقسنطينة سمّاه باسم الرئيس ابن باديس رحمه الله، ذلك بعد أن ضاعف من وتيرة بناء مدارس الجمعية وكثف من نشاطها لتعم أرجاء بلاد الجزائر جلِّها، كما كان قد شيّد بتلمسان دار الحديث رفقة الإمام الرئيس ابن باديس، والتي كان يرجو أن يؤسس من خلالها مدرسة مغربية تخدم الحديث النبوي.

سنة 1952، سافر مجددًا للمشرق ساعيًا لدعم القضية الجزائرية، وعاد للوطن بعد الاستقلال في 1962، وقد ضمُر نشاطه حينها بسبب تدهور صحته من جهة وبسبب السياسات الجديدة من جهة أخرى، لكنه ألقى خطبة جمعة تاريخية وأصدر بياناً داعياً للعودة إلى جادة الإسلام عُرِف باسم بيان أفريل 1964. توفي في 20 مايو 1965، تاركًا إرثًا ثقافيًا ودينيًا غنيًا، لا يزال إلى اليوم غضا طريا وبحاجة إلى مزيد درس وفحص واستلهام في إصلاح واقعنا بما يناسب مستجدات عصرنا.[3]

ولا بأس أن ننقل هنا كلام الدكتور توفيق المدني بحرفه واصفا الشيخ الإبراهيمي إذ يذكر ضمن خصاله: "وفصاحة في اللسان، وروعة في البيان، وإلمام شامل بلغة العرب، لا تخفى عليه منها خافية، وملكة في التعبير مدهشة، جعلته يستطيع معالجة أي موضوع ارتجالًا على البديهة، إما نثرًا أو نظمًا ..."[4]

وإذا كانت التربية هي رعاية الناشئة على المكارم وغرس القيم التي يتبناها المجتمع فيهم، فإنا نقول إن البشير الإبراهيمي في مشاريعه الإصلاحية كان رجل تربية بامتياز، يستشرف التغيير من باب المدرسة والتعليم والتربية، ويؤمن أن العدو الفرنسي لا يواجَه إلا بأمة تعتز بأصولها ودينها ولسانها ومقومات انتمائها، ولا سبيل لتحقيق ذلك بغير نهضة علمية تربوية، ولذا فإنه يسوغ لنا من حيث المبدأ أن نعُدَّ **كل كلام ينطق به الإمام هو بمثابة نص تربوي**، إما من قبيل التنظير والتشغيل المعرفي؛ وهو ما يَرِد مطلقا غير متعلق بسياق زمني محدد، أو هو من قبيل التدبير والتفعيل والتنزيل العملي؛ وهو ما يَرِد متعلقا بجهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ناب رئاستها بعد عهد الرئيس عبد الحميد بن باديس.

ويروي الشيخ محمد الغزالي عن الشيخ الإبراهيمي أنه "كان فقيهًا ذكي الفكرة بعيد النظرة، ووقع لي معه حوار في مسألتين طريفتين. قال لي مرة: لعلك قرأت في السيرة الشريفة أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا ينصرفون عن مجلسه إلَّا على ذَوَاق- وزن جمال-. قلت: نعم. قال: فما

---

[3] السيرة مختصرة مما كتبه نجله أحمد طالب الإبراهيمي في مقدمة الآثار، انظر: محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولى،1997، ج1، ص9-15.، كما كتب الإمام سيرته هو بنفسه ثلاث مرات؛ انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص290/272/163.

[4] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص.17

الذواق الذي ينالونه في مجلسه؟ فتَرَيَّثْتُ قليلاً ثم أجبت: لعلهم كانوا يتناولون بعض الأطعمة أو الأشربة كما يقع في عصرنا هذا عندما تُقَدِّم للأضياف والوافدين أقداحًا من الشاي أو غيره ... قال لي: ظننتك أفضل من أن تجيب هذه الإجابة الساذجة، أذلك شيء ينوِّه به الأصحاب الكرام؟ قلت في تلهف: فما هذا الذواق الوارد في السنة؟ قال: إنه تذوق أرقى، ألا تذكر الحديث الشريف: «ذاق حلاوة الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا ورسولا». إن المجلس النبوي تظلله الحكمة، ومقام النبي فيه ترقيق القلوب، ورفع المستوى، وتخليص الروحانية من شوائب الأرض، وجعل البشر في مصاف الملإ الأعلى ... فما ينصرف أحد عن هذا المجلس الزكي إلا وقد تذوق نازلًا من السماء، ولا يعود إلى أهله إلا بذخر يعليه ويعليهم.

الحق أن هذا المعنى كان جديدًا علي، غير أني شعرت بأنه الحق، وأنه أولى كثيرًا من تفسير الذواق بأنه طعام أو شراب ..."[5] هكذا كان الإمام بديعا في ألفاظه عميقا في فكره نيرا نافعا كالغيث أينما وقع.

- **الذوق الجمالي في السياق التربوي**

الجمال على غرار كثير من المعاني النفسية، هو مما يعجز البشر عن إدراك كنهه وحقيقته، فيكون المخرج من هذا هو التعبير عن آثاره، إذ لا مطمع للغة البشرية في أن تدرك الحقائق والجواهر كما هي، إنما قصاراها أن تتعلق بالأعراض والظواهر، وهذا العجز يتم تسجيله في تعريف الجمال مثالا، فلا نكاد نجد تعريفا وشرحا إلا وهو يحيل إلى آثار ذلك الشعور.. لا إلى حقيقته.

وفي المعاجم يتم تعريف الجمال على أنه ضد القبح، وهو الحسن والزينة، والعسكري في الفروق يقول "الحسن في الأصل للصورة، ثم استعمل في الأفعال والأخلاق، والجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم استعمل في الصور" إلا أن عامة أرباب التعريفات والمعاجم على أن الجمال والحسن بمعنى واحد من غير تفريق، يقال للحُسن جمال، وللجمال حسن، فيقول الزبيدي في تاج القاموس: "الجَمَالُ: الحُسْنُ يكون فِي الخُلُقِ فِي الخَلْق. وعِبارة المُحْكم فِي الفِعْلِ والخَلْقِ، وقَوْلُه تَعَالَى: لكم فِيهَا جَمَالٌ أَي: بَهاءٌ وحُسْنٌ.

وَفِي الحَدِيث: إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحب الجمالَ أَي: جَمِيل الأَفْعال. وَقَالَ سِيبَوَيه: الجَمَالُ رِقَّة الحُسْنِ.

[5] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص6

وَقَالَ الرَّاغِب: الجَمَالُ: الحُسْنُ الكَثِير، وَذَلِكَ ضَرْبَان: أَحدهمَا: جمال يُخْتَصُّ الإنسانُ بِهِ. فِي نَفْسِه أَو بَدَنِه أَو فِعله. وَالثَّانِي: مَا يَصِلُ مِنْهُ إِلَى غَيْرِه. وعَلى هَذَا الوَجْهِ مَا رُوِيَ: إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يحبُّ الجَمَالَ تَنْبِيها أَنَّ مِنْهُ تَفِيضُ الخَيراتُ الكَثِيرَةُ فيُحِب مَنْ يَخْتَصُّ بذلك"[6]

والتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان يمثل أوسع الرؤى التي شهدتها البشرية، هو بمثابة الرؤية الشاملة التي لا تقتصر على جانب دون آخر من جوانب الوجود، ولذلك فقد "دفع الإسلام أبناءه بتلك الروحانية العنيفة إلى ميادين الحياة، بعد أن عرفهم بمعاني الحياة: دفع الأبطال إلى الفتح، وجعل الرفق رديفه، ودفع أولي الهمم إلى الملك، وجعل العدل حليفه، ودفع العلماء إلى التربية، وجعل الإصلاح غايتها، ودفع الأغنياء إلى بناء المآثر، وجعل عزة الأمة نهايتها، فسد كل واحد ثغرة وأبقى فيها الآثار الخوالد: أبقى الأبطال تلك الفتوحات التي هي مفاتيح ملك الإسلام، وأبقى الخلفاء تلك السير التي هي جمال الأيام، وأبقى العلماء تلك الأسفار الكريمة التي هي عطر التاريخ وأزهاره، وأبقى الأغنياء هذه المعاقل الباذخة التي هي بيوت الله"[7]

كما أن العلاقة بين الإيمان وتعزيز القيم الجمالية وثيقة جدا في تصور البشير الإبراهيمي، لهذا نجده في معرض وصف شاعرية أحد الشعراء يقول: "إن لإيمان صاحبنا الوزير الشاعر، وتقواه، وتربيته الدينية، ومحافظته على الشعائر، دخلا كبيرا في تلوين شاعريته، وإضفاء جلال الدين عليها"[8]. وفي موقف آخر يكون أكثر صراحة إذ يقول: "والعظمة الحقة- عظمة الخير والجمال والمنفعة- مستمدة عناصرها الأولى من ينابيع النبوة، التي هي مثال لتصفية النفس من كثافة المادة وكدورة الأثرة، فهي متصلة بالله، شعر البشر بذلك أو لم يشعروا"[9]

وقد واجه الإنسان المعاصر ما يمكن أن نسميه غزواً جمالياً من قبل تيارات الحداثة والعولمة، فسحق هذا الغزو الجانب الوجداني للإنسان، وأعلى من قيم المادية والنفعية اللحظية واللذة غير المنضبطة،

---

[6] محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 1965-2001م، ج28، ص236.

[7] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص137.

[8] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص85.

[9] المصدر نفسه، ج3، ص388.

وأعلن أن الجسد هو مناط حكم الجمال ومعياره الأساس، ما أدى إلى تشويه الجانب الجمالي في الشخصية الإنسانية المعاصرة التي تحتاج إلى استعادة وعيها الجمالي وفق مرجعية تؤمن بالإنسان كلا متكاملا، وتراه في أبعاده المختلفة وليس في بعد واحد،[10] مما يقتضي بحاملي التصور الإسلامي أن ينهضوا لإغاثة الذوق الجمالي وقيم الفضيلة والحسن متمثلين قول البشير الإبراهيمي: "واستغاثت [البشرية] من عباد المادة الحائدين عن الجادة، فأغاثها أنصار الروح، والمقدسون للروح، والقائلون بخلود الروح. واستغاثت من أعداء العقل المفكر، وعباد الحس والمحسوس، فأغاثها الحكماء الربانيون والفلاسفة الإشراقيون"[11]

فمما سبق يتبين الارتباط الوثيق بين قيم الجمال والإيمان، مما يقتضي ضرورة حضورها في النصوص التربوية والمضامين التعليمية، ذلك أن تذوق الجمال واستشعار المتعة والحسن فرع عن الخلفية المعرفية التي يحملها الإنسان ومنظومة القيم الكلية التي يؤمن بها.

على أن ثمة سؤالا يتبع الحكم بارتباط الجمال بالفضيلة مفاده: هل يمكن أن يستشعر المرء المؤمن جمالا في غير ما هو فضيلة وخير؟ الإجابة في هذا تحتاج إلى تفصيل بيد أن الإبراهيمي لا يكابر النفس الإنسانية في استعذابها الملذات وتشهيها ما يثير الإعجاب، ويشير إلى هذا ضمنا في قوله: "وقد عهدنا الشيطان "المتمدن" لطيف الإحساس، فني الذوق، وعهدنا أعماله فنية الأسلوب فاتنة المظهر؛ والفتنة هي سلاح الشيطان الأحدّ"[12] لكنه متاع زائل وغرور فانٍ ما لم يتوج برفيع القيم والمعاني.

ثانيا: ملامح الذوق الجمالي في النص التربوي للبشير الإبراهيمي

من المتعذر على مقالة علمية أن تستوعب الفكر التربوي للبشير الإبراهيمي وما فيه من حضور للقيم الجمالية، ولكننا سنحاول أخذ نماذج من آثار الإمام، تنتظم تحت عناوين ثلاثة، نحسب أنها تجمع بين جمال المادة والروح، وحسن الظاهر والباطن، وهي كما يلي:

---

[10] انظر: حسان عبد الله، التربية الجمالية المفهوم-الأبعاد-الوظائف، مجلة أبحاث ودراسات تربوية، العدد الثامن - السنة الرابعة، 2019م.

[11] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص63.

[12] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص320.

- رُقَيُّ البيئة التربوية، إذ العناية بحسن العلاقات وجودة المقررات وزخرفة العمارة في محاضن القيم.
- القدوة الحسنة، بالبحث في معاني الاقتداء والتأسي لتحصيل حُسن الخُلُق مع الخَلْق.
- الاحتفالات والأعياد، وما فيهما من معاني الأمل والوَحدة وجمال الاجتماع.

1. رقيّ البيئة التربوية

نعني بالبيئة التربوية كل ما يحفّ العملية التعليمية من المباني المشيدة والمضامين التربوية وكذا الإنسان الفاعل فيها معلّما ومتعلما، وللإبراهيمي في هذا الباب كبير عناية بالمستويات الثلاثة على حد سواء، وسنشير إلى الأخيرين عرَضا؛ أي قيم المعلمين والمتعلمين وكذا فلسفة المضامين التربوية، على أننا سنركز بشكل أخص على فلسفة البناء وتشييد المدارس والمعاهد عند جمعية العلماء.

العناية بالأسرة التعليمية:

للإبراهيمي في مقالاته صولات وجولات في نصح المعلمين وتوجيههم، كما له مثل ذلك في تهذيب سلوك الناشئة المتعلمين، وهو يستشرف في كل ذلك الوصول إلى حالة الانسجام وحسن الذوق، وجمال العلاقة بين المربي والمتعلم، وكذا النزوعِ نحو التأسي بأصحاب الفضائل، والتخلي عن أهل الرذائل.

أما في نصح المعلمين وتوجيههم ورعاية القيم الجمالية في تعليمهم الأبناء فيقول مثلا "إنَّ من الطباع اللازمة للأطفال أنهم يحبّون من يتحبَّب لهم، ويميلون إلى من يُحسن إليهم، ويأنسون بمن يعاملهم بالرفق، ويقابلهم بالبشاشة والبشر. فواجب المربّي الحاذق المخلص، إذا أراد أن يصل إلى نفوسهم من أقرب طريق، وأن يصلح نزعاتهم بأيسر كلفة ... أن يتحبب إليهم، ويقابلهم بوجه متهلل، ويبادلهم التحية بأحسن منها، ويسألهم عن أحوالهم باهتمام، ويضاحكهم، ويحادثهم بلطف وبشاشة، ويبسط لهم الآمال، ويظهر لهم من الحنان والعطف ما يحملهم على محبته، فإذا أحبّوه أطاعوه وامتثلوا أمره، وإذا أطاعوا أمره وصل من توجيههم في الصالحات إلى ما يريد، وتمكّن من حملهم على الاستقامة وطبعهم على الخير والفضيلة"[13] وهذا نص زاخر بالقيم الحسنة في آداب التعليم على غرار البشاشة

[13] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص108

والتودد والاهتمام والملاطفة واللين والرفق، قيم جمالية ما أخذ المعلّم بها إلا كسب قلوب تلامذته، وملك زِمام أمرهم، فقادهم بذاك إلى المكارم، والعكس بالعكس..

كما نجد مقالات عدة يفردها الإبراهيمي خصوصا للمعلمين، من ذلك مقال "إلى المشايخ المعلمين"[14] ومجموعة مقالات بعنوان "إلى أبنائنا المعلمين الأحرار"[15] وتبقى مقالة "مرشد المعلمين"[16] من أعلى ما كتب في هذا السياق إذ تأخذ بيد المعلم الحيران وترويه بغزير القيم الفاضلة التي بها يسلك سبيل الرشاد فلا يتيه، وسبيل الهدى فلا يضيع، في نقله للقيم إلى نفوس الناشئة من بعده، و "لو أنَّ وزارة التربية في بلدي، تَخِذَتها دستورا للمعلِّم، وميثاقا للمربي؛ يقسم عليه كلُّ من انبرى لهذه المهمَّة المقدَّسَة، مثلما يقسم الطبيب على "ميثاق الشرف" المعروف؛ والله لو صدق الجميع وجعلوا من هذه القاعدة ملاذا، لما شهدنا أزمة في التعليم، ولا تقهقرا في الأخلاق، ولا تخلفا في ميدان العلم"[17]

وإذا توجه إلى المتعلمين فإنه يغمرهم بالمعاني الراقية بأرق وصف وأبلغ عبارة، فيحث على الفضيلة واتباع سبيل الاهتداء ومن ذلك مثلا "أنتم- يا أبناءنا- نتاج هذه الحركة العلمية المباركة، وأنتم غلة سنة خضراء بين سنين يابسات ... أعيذكم بالله وبشرف العلم وبأمانة الوطن أن تُنفقوا دقيقة من أوقاتكم- بعد قوام الدين والحياة- في غير الطلب والتحصيل للعلم"[18] وهو لا يبخلهم ببيان زيف ما حولهم من المشتتات والصوارف عن الغاية السامية فيقول: "أيها الشباب لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب، ينفخ في ميزاب، ولا داعية انتخاب، في المجامع صخاب، ولا يلفتنكم عنه معلّل بسراب، ولا حاوٍ بجراب، ولا عاوٍ في خراب، يأتم بغراب، ولا يفتنّكم عنه منزوٍ في خنقة، ولا ملتو في زنقة، ولا جالس في ساباط، على بساط، يحاكي فيكم سنّة الله في الأسباط. فكل واحد من هؤلاء مشعوذ خلّاب وساحر كذّاب"[19] ثم إن الإبراهيمي لا يغفل عن أهمية إقناع أولياء أمورهم، لذلك يتوجه إليهم بمقالة لصيقة بالمقالة السابقة يحثهم على ضرورة العناية بأبنائهم والالتفات إلى النافع عن الضار، وإلى الرفيع عن الخسيس.

---

[14] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص244

[15] المصدر نفسه، ج3، ص262

[16] المصدر نفسه، ج2، ص108

[17] محمد باباعمي، القواعد الأربعون للعشق الإبراهيمي، مؤلَّف لم يصدر بعد. 2024/03/27.

[18] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص314

[19] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج3، ص316

وقد يطرح السؤال عن القيمة الجمالية المستفادة من توجيه الأبناء والأولياء للمعاني الفاضلة والتأسي بالعلماء وكذا عن الجمالية في الاقتداء، فيكون الجواب من وجهين، أولهما الأسلوب البياني البليغ في التوجيه، والفن الراقي في النصح والتنبيه، أما الوجه الثاني فهو مضمون النصيحة ذاتُه أنه قيم فاضلة عليا، على غرار الجد والكد واستفراغ الوسع في سبيل الأمة، وهذا كله مخبر لجميل الفكر والنظر إلى الحياة، وما مُدح جمالُ البناء ورفاهة المكان إلا من حيث كونهما محلا لترقية الأخلاق وتهذيب النفوس.

وفي ربط قيمة الجمال الحسي بالإنسان الجميل فكرا وأدبا يقول البشير الإبراهيمي: "تغالى خلفاء بني العباس في تشييد قصورهم، وعمروها بأسباب الترف المادي، ووسائل اللذات الجسمانية، وأسبغوا عليها كل ما يستهوي من جمال وفن، وتسامت همم الخلفاء إلى إظهار جلال الخلافة في البناء والتشييد، فما قصر في ذلك منهم أول ولا أخير، وباهت بغداد بتلك القصور أمصار العالم كله، ولكنهم لم يهتدوا إلى البنية التي تحمل كل بناء، ولم ينفقوا في تشييد المدرسة بعض ما ينفقون في تشييد القصر من مال وعناية وذوق، إلى أن جاء أحد وزرائهم فسبق للمنقبة التي تغطي المناقب، وشاد المدرسة النظامية، هنالك علمت بغداد أن كل ما حازته من جمال كانت تنقصه نقطة الجمال، وأن كل ما وصلت إليه من عظمة كان ينقصه سر العظمة، وأن كل ما كتب عنها التاريخ، ودَوّن وصفها الشعر خيالٌ أيدته هذه الحقيقة، وأن كل ما حوى "الجانبان" بناء تنقصه لبنة التمام.

كانت تلك القصور تزخر بالترف الذي يفضي إلى الرذيلة، وتؤوي في أكنافها أمما من الجواري والغلمان والفجرة والغدرة، وتخفي في أقبائها الموت والظلم، وتحاك في أروقتها المكائد والحيل، وتهدر في ساحاتها الأعراض والدماء والفضائل، ويقرب إليها ناسكوها قرابين المصانعة والنفاق.

أما مدرسة الوزير نظام الملك فقد أصبحت تزخر بطلاب العلوم، ويسطع في آفاقها من أئمة الإسلام نجوم، ويشع شعاعها فيجاوز النهر إلى خراسان، والبحر إلى الأندلس. ناهيك بابن الصباغ، وأبي حامد الغزالي، وأبي إسحاق الإسفرائيني".[20]

[20] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص259

فلسفة المناهج والمقررات:

أما المقررات ومناهج التعليم فإنه وفوق سمو غايتها التي هي التهيئة الصحيحة للفرد المؤمن المعتز بقيم أمته، فإننا نجد تنوعا في المضامين وثراء في المواد يجمع بين الدينيات علما وعملا والدنيويات رياضيات وطبيعيات، قراءة وخطابة وكتابة[21] لكن الذي يثير الاهتمام في هذا الصدد "عصرنة الوسائل" التي يعتمدها في إيصال المقررات التي "كان التلميذ العربي محرومًا منها، لأن المعاهد العربية خالية منها"[22] ويقصد هنا علوم الطبيعة والحياة، ودروس الصحة والحساب "وقد قام المعهد في هذه السنة بتجربة موفّقة بلغت الغاية من النجاح، إذ تطوّع الدكتور عبد القادر بن شريف بإلقاء دروس في حفظ الصحة على تلامذة المعهد، مستعينًا بأشرطة سينمائية، فلقيتْ من الطلبة إقبالًا يفوق الحدّ، وتطوّع الصيدلي الأستاذ علاوة عباس بإلقاء دروس أسبوعية في علم وظائف الأعضاء وتركيب الجسم، فكان لها من التأثير والإقبال مثل ذلك، وتطوّع الأستاذ محمد الجيجلي من أساتذة التعليم الثانوي الفرنسي بإلقاء دروس في الجغرافيا، وتطوّع الأستاذ محمد بن عبد الرحمن بإلقاء دروس في الحساب، فكان لهذه الدروس من الآثار الشيء الكثير[23] ولعل السؤال المطروح هنا: هل العناية بوسائل التربية والتعليم في عصرنا ترقى إلى الأشرطة السينمائية بالنسبة لعصر الإبراهيمي؟ لا شك أن البحث عن الوسائل الأكثر تأثيرا، والتفتيش عن الأساليب الأكثر نجاعة، قيمة جمالية لا بد على القائمين على التربية والتعليم استثمارها، فكثير من القيم لا يمنع وصولَها غيرُ رداءة الوسيلة التي تنقلها..

تشييد المدارس والمعاهد:

"حياةُ الأمم في هذا العصر بالمدارس"[24] ومن خلال بناء المدارس، تسعى الأمم لإحياء العقول بنور العلم، إذ "الحياة بالعلم، والمدرسة منبع العلم، ومشرَع العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة"[25]. فهي العقد الذي يربط جمال القصور وروعة المصانع بالحياة العقلية والروحية

---

[21] أنظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج3، ص255

[22] المصدر نفسه، ج3، ص256

[23] المصدر نفسه، ج3، ص258

[24] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص258

[25] المصدر نفسه، ج3، ص258

للإنسان، و"ذلك كله مدينة ضخمة جميلة، ولكنها بغير المدرسة عقد بلا واسطة، أو جسم بلا قلب".[26] "والأمة التي لا تبني المدارس تبنى لها السجون، والأمة التي لا تصنع الحياة يصنع لها الموت".[27] أما الغاية العليا من المدرسة العربية الحديثة خصوصا فهي توحيد النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وتصحيح نظرتهم إلى الحياة، حتى ينشأ جيلٌ متحد الأفكار، قوي العزيمة، متوازن النزعات، يسعى جاهدًا لخير الدين والوطن..[28]

الكلمات السابقة يسع أي إنسان ذو لسان أن يتفوه بها لو كانت مجرد رص للحروف والكلمات، بيد أن الإبراهيمي امرؤُ فعل لا كلام، وإنما قال ما قال بعد ما شُيِّد وأُنجِز، بل ويترك المنجزات وحدها تتحدث أحيانا، إذ "هذا الخطيب المفصح المبين هو هذا البناء الشامخ الباذخ الذي يحدثكم عن نفسه فيُعْرِب ... فمن واجبنا اليوم أن نسكت ونمتّع النفوس بلذّة العمل وثمرات العمل، وأن نعطي للعين حظّها من المتاع وللسان حظه من الراحة"[29]. ثم هو يسرد في مواضع أخرى المدارس التي أسستها الجمعية "ولئن كان من مفاخر الطور الأول للجمعية مدرسة دار الحديث بتلمسان ومدرسة تهذيب البنين بتبسة، وكان من مفاخر الطور الثاني مدرسة الحياة بجيجل، ومدرسة شاطودان، فمن مفاخر هذا الطور الأخير مدرسة ندرومة، ومدرسة سيق، ومدرسة وهران ومدرسة أبي العباس، ومدرسة تيهرت، ومدرسة الأصنام، ومدرسة الأغواط، ومدرسة بوفريك، ومدرسة سانت أوجين، ومدرسة حي بيلكور في الجزائر، ومدرسة قنزات، ومدرسة سطيف، ومدرسة العلمة، ومدرسة بسكرة، ومدرسة سكيكدة، ومدرسة عنابة.."[30]

ولكن القيمة الجمالية لم تقف في مجرد البناء رغم العراقيل ولا كثرته، وإنما هي فوق ذلك في شكل المباني وإتقان صنعها، فإن "هذه المدارس شيدت كلها على طراز متقارب الهندسة والمظهر ... وما زال اتحاد الذوق في أمة دليلًا على وحدة تفكيرها، وسداد نظرتها، وما زلنا نرى الطراز الأندلسي موحد

---

[26] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص258

[27] المصدر نفسه، ج2، ص430

[28] المصدر نفسه، ج3، ص258

[29] المصدر نفسه، ج2، ص381

[30] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص431

التقسيم والتخطيط، فنشهد لأصحابه بوحدة الذوق وانسجام اللمحة، والتواطؤ على فنون الحياة ...ونحن بهذا التقارب البادي في طراز مدارسنا والذي سيتم تمامه في المستقبل نكون قد سجلنا لجيلنا الحاضر منقبة، وفرضنا على الأجيال الآتية نوعًا من الإكبار لنا، والتقدير لأعمالنا فائدته لنا حسن الذكر وطيب الأحاديث من بعدنا، وتزيين صحائفنا السوداء بلمحة من جمال[31]"

أما دار الحديث بتلمسان فقد كانت آية ومفخرة، يصفها الإبراهيمي بقوله: "وكيف لا أمتلئ زهوًا وإعجابًا وأملًا في الحياة وطموحًا إلى غاياتها بعد أن رأينا المدرسة التي تُذوّقنا حلاوة العلم الصحيح فيها، وسرنا على نور الهداية الإسلامية تحت اسمها وسمعتها، رأيناها تترقّى في الوجود الحسي من أماكن مستعارة إلى بيوت بالإجارة، إلى مكان بسيط لا يليق بشرف العلم، ولا يتناسب مع قدر "تلمسان" وعظمتها التاريخية ومجدها الخالد، ولا بقيمة أستاذنا محي "تلمسان". تترقّى في مثل هذه المدّة القليلة إلى هذه القمّة العليا، وتظهر في هذا الشكل العجيب المدهش جامعةً بين الفن العربي البديع والشكل العصري الأنيق، وتبدو آيةً في الضخامة والجمال، والسعة والكمال[32]"

وإذا تحدثنا عن المعهد الباديسي فإنه قد كان آية في صنعه، في مكان يجمع بين الصحة والجمال، يبتعد عن أسباب الرطوبة وبواعث الأمراض، وينفر عن كل شكل لا يسهم في متابعة القيم وتوجيه الأخلاق، وكان نصيب التجهيزات من المالية السنوية معتبرا لا مهاودة فيها، فإن "جمعية العلماء المسؤولة عن أبناء الأمة، الناظرة إلى مستقبلهم بعين بصيرة- ترى أن هذه النهضة العلمية التي تشرف عليها وتسيرها، يجب أن تساير عصرها ولا تتخلف عن قوافله المجدة، وأن من شروطها الضرورية إعداد ما يستطاع من أبناء هذا الجيل إعدادا صحيحا في عقولهم وفي أبدانهم[33]"

هذه العناية الشديدة بالقيم الجمالية في البيئة التربوية ما كانت إلا تحقيقا واقعيا لفكرة مالك بن نبي إذ يقول: "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالاً

---

[31] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص432

[32] المصدر نفسه، ج1، ص307

[33] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص447

أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره، وأعماله، ومساعيه"[34] ولا بد أن يطرح السؤال ملحا هنا؛ كيف هو الذوق الجمالي في البيئة التربوية لدينا؟ وما أثر ذلك إيجابا أو سلبا؟ وهل يمكن أن نعد جمالية البيئة التربوية من الكماليات التي لا يضير غيابها بعد هذا؟

2. القدوة الحسنة وقيم التأسي

القدوة مفتاح تربوي أصيل في الفكر الإسلامي، وهو من المسالك التي تعبر منها القيم الجمالية إلى عقول الناشئة وقلوبها، وهو في حد ذاته قيمة جمالية من منظور البشير الإبراهيمي[35]، إذ في الاقتداء مظهر اعتزاز الأمة بأعلامها، وارتباط الأجيال الحاضرة بماضيها. كما أن الناس في استيعاب المعاني المجردة مستويات، بيد أن تصور وقائع الرجال وأحوالهم مما يتيسر لعموم الخلق. ولهذا نجد الإمام البشير الإبراهيمي يفرد مقالات في موضوع القدوة يروم من خلالها نقل قيم الجمال ومعاني الكمال، وخصال الحسن والبهاء في نفوس الناشئة والأبناء، فكرا وذوقا وعملا.

أما معالم القدوة الحسنة في فكر الإبراهيمي فيمكن أن نتبينها من مدحه من يراه أهلا للاقتداء به، وذمِّه من ينبغي اجتناب سبيله، مبينا العلّة في كل من الخيارين. كما يمكن أن نجد معاني حسن القدوة في توجيهاته المباشرة لأبنائه المعلمين، الذين كانوا على رأس مدارس جمعية العلماء المسلمين.

ومن المسلك الثاني المباشر نجد قوله مثلا: "ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقا على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال؛ فإن الناشئ الصغير مرهف الحس، طلعة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم، وإنه قوي الإدراك للمعايب والكمالات، فإذا زيّنتم له الصدق، فكونوا صادقين، وإذا حسّنتم له الصبر، فكونوا من الصابرين، واعلموا أن كل نقش تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشا في نفوسكم فهو زائل، وأن كل صبغ تنفضونه على أرواحهم من قبل أن يكون متغلغلا في أرواحكم فهو- لا محالة- ناصل حائل، وأن كل سحر تنفثونه لاستنزالهم غير الصدق فهو باطل؛ ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من

---

[34] مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، 1968م، ص91.

[35] انظر جزئية: فلسفة المناهج والمقررات في مقالنا هذا، ص 11.

الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة."[36] وهذا نص بليغ مكثف بالرمز والبيان العربي، من غير أن يشعر قارئه بأي تكلف في نسجه أو تقعر في لفظه، فمن المحسنات الطباقُ والمقابلةُ، ومن الصور الاستعارةُ والكنايةُ، كما نجده يربط قيمة القدوة بتهذيب النفس وتزيينها في وصفه آفات تصدر عن بعض المتعلمين أنها "من آثار التربية المضطربة لم يهذّبها العلم وسيهذّبها التأسي[37]" فهذا أسلوب تعليمي مباشر عند الإبراهيمي ينصح به ويحث على معاني القدوة.

أما إذا كان الحديث في وصف الأعلام المؤثرين في الأمة -إيجابا أو سلبا- فإن الإبراهيمي يمهد للموضوع بقوله: "[مجلة] البصائر ميزان حق، ولسان صدق، فهي تزن الرجال بأعمالهم الجليلة، ومواقفهم الشريفة، وتقوّمهم بالقيم الإيجابية، لا بالقيم بالسلبية، وهي تمدح المستحقين للمدح فلا تشين المدح بالغلوّ، وتذمّ المستأهلين للذم فلا تزين الذمّ بالكذب والاختلاق"[38] بهذا الكلام البديع يبدأ البشير الإبراهيمي مقاله في تقريظ الشيخين إمامي النهضة الطاهر بن عاشور وعبد الحميد بن باديس. وفوق القيمة الأدبية للنص فإنه يحمل في طياته المعاني العميقة؛ على غرار تأكيده أن قيمة الرجال إنما هي بالأعمال الصادقة لا بالأقوال الزائفة.

وواقع الأعلام والأفذاذ إنما يؤخذ بالعيان والفحص لا بمجرد السماع الأول وتلقي ما اشتهر.. إذ "الاكتفاء بالسماع عن النوابغ يفضي في الغالب إلى تصوّرات خاطئة في حقّهم تعلو إلى الغلو أو تسف إلى التفريط، وسير النوابغ كالنصوص يجب أن تؤخذ كما هي وإلا أفسدت القدوة[39]" وهو لا يقول هذا الكلام لفظا مجردا عن العمل، بل يتمثله حقيقة واقعة فيقول "وأنا ... فمن مقاصدي في هذه الرحلة أن أدرس-عن عيان- المهم من القضايا الإسلامية، وأدرس العاملين من رجال الإسلام لآخذ عنهم

---

[36] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص264

[37] المصدر نفسه، ج2، ص218

[38] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص548

[39] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص339

القدوة الحسنة لنفسي أولًا، ولقومي يوم تنشر مذكراتي عن هذه الرحلة ثانيًا"[40] فما أجمله من تمثل للتأسي في معرض الحضّ على التأسي.

ولو تتبعنا النصوص التي تناول الإبراهيمي فيها شخصيات وأعلاما إما بالتقريظ والمدح أو الغرض والقدح نحللها ونتتبع دقائقها ولطائفها لحصلنا على مجلد أدبي وفكري زاخر، ولعل من أبناء الأمة نجباءَ ينهضون لهذا العمل الذي يبدو أنه جهد الجماعة لا جهد الفرد، ذلك أن الإبراهيمي في نصوصه يعتمد الرمزية في الخطاب، والاقتباس من ألفاظ الوحي الشريف، ويكثف في الكناية والتورية من غير إلغاز، ويبسط العبارة من غير ابتذال، حتى يصير استيعاب دلالات النص كلها مشروطا باجتماع أكثر من ميدان معرفي واحد، أدبي، عقدي، فقهي، فلسفي واجتماعي..

كما أن من الملاحظ أن للإبراهيمي في نصوصه هذه أسلوبان، أحدهما الوصف المسترسل ببديع الكلام وبسيطه، والثاني تلخيص المعنى في بليغ اللفظ ووجيزه، فيتلقاها القارئ على أنها قواعد كلية، مصاغة بشكل مستقل عن خصوصية الشخصية وسياقها الزماني والمكاني، بحيث إن صياغتها الوجيزة الكلية أدعى للتمثل عملا وسلوكا.[41] ومن الأمثلة على ما ورد مصاغا في شكل القاعدة الكلية:

"والمحافظة ألزم ما يكون لنهضة كنهضتنا لم تزل في طور الاختمار، تتجاذبها العوامل الخارجية أكثر مما تكيفها الضرورات الداخلية"[42]
"والإخلاص أحوج ما تحتاج إليه ناشئتنا في وقت ذهب فيه الإخلاص ضحية المداجاة والنفاق والغش والمؤاربة ومجموعها هو الرياء الخادع"[43]
"الصبر مطية النجاح وقوام الحياة كلها"[44]

---

[40] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص340

[41] انظر: محمد باباعمي؛ في حب كلام الله، دار كتابك، الجزائر، 1438 هـ / 2018 م، ص97

[42] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص46

[43] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1، ص46.

[44] المصدر نفسه.

"والاعتماد على النفس [خلق هو] خير ما حمل الآباء عليه أبناءهم فهو الرائد إلى السعادة وهو أساس الحياة الاستقلالية"[45]

"وحسن العشرة أساس الجاذبية"[46]

"والحاجة إذا ألحّت كشفت عن رجل الساعة"[47]

" وإن تدبير الأحوال الاجتماعية لأقوى وأبقى من تدبير الجماعات، وإن تدبير الجماعات لأثر من روح الاجتماع"[48]

"وإن في سير الكاملين لذكرى للمقصرين والخاملين"[49]

ما سبق كله قد ورد خصوصا في مقالات تصِف أعيانا من الناس بأشخاصهم وما تميز به كل واحد منهم رجاء جعلهم مَحَلًّا للاقتداء والتأسي، بيد أن المنزع العملي للإمام يدفعه لوضع قواعد كلية في نهاية جل فقراته، وهكذا تحصل في القارئ نفحة تهب به نحو واقع الحياة كلما قرأ مقالة من مقالاته.

وبهذا يتبين أن النصوص التي أفردها الإمام لموضوع القدوة الحسنة غير قليلة في كمها وبليغة في نوعها، فقد جمع في ثناياها حسن العرض والغَرَض، وجمال الوصف والكشف، مع نبل غاية ومسعى، وهو أن تتحقق هذه المعاني في حياة الناس سلوكا وواقعا.

3. الاحتفالات والأعياد وقيم الوَحدة

إذا كانت غاية الاحتفالات التي تروج لها مذاهب اللذة تحقيق أكبر قدر ممكن من المتعة اللحظية والآنية "بالتوافه والسفاسف"[50]، وإذا كانت محضَ تكرار "الصور العادية الساذجة"[51] في أعين من

---

[45] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1، ص46.

[46] المصدر نفسه.

[47] المصدر نفسه، ج3، ص549

[48] المصدر نفسه.

[49] المصدر نفسه، ج2، ص186

[50] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص332

[51] المصدر نفسه، ج1، ص333

عُدِم الإحساس الفني والجمالي وأصيب ببلادة الحس، فإنها في نظر الإبراهيمي قيمة عليا تتجاوز محض اللهو والترف، فهو يقول في شأنها "الاحتفالات- بنظامها العصري- مجامع مفيدة من جميع جهاتها، لجميع روّادها."[52] وهو يجعل الخيرية فيها مقيدة بغرضها فيقول إنها "أدوات تعارف وتواصل وربط بين من لم تتهيأ لهم أسباب الاجتماع إلا في هذه الاحتفالات"[53] والشيخ مسكون بفكرة الأخوة ووَحدة الأمة، حيث "ضرورة الاتحاد أمر لا يختلف فيه عاقلان، وهو أمنية كل مسلم مخلص لدينه وجنسه ووطنه"[54] والأمة الإسلامية "أحوج ما تكون إلى جمع القوى والتئام الشمل واتحاد الكلمة[55]". وقيمة الاحتفالات تعلو أو تسفل بما وضعت لأجله من الأسباب والمعاني "فبقدر سمو السبب وعموميته تكون قيمة الاحتفال، ثم تنزل تلك القيمة وترخص كلما تَفِه السبب"[56].

والمعاني التي في ذاكرة الأمة الإسلامية غزيرة إذا ما رامت الأمة إحياءها، إذ "عندنا معشر المسلمين ليلة الميلاد النبوي وعندنا يوم الهجرة ورأس السنة الهجرية ويوم بدر ويوم أحد ويوم فتح مكة وغير ذلك من الأحداث التي وقعت في عهد النبوّة، ولكل واحد من هذه الأحداث مغزى سام وأثر بالغ في تاريخنا"[57] وما إحياؤها إلا بغرض تثبيت معاني العزة والأنفة في النفوس، وإنشاء الأجيال عليها.

إن الاحتفالات تتطلب عناية بنظامها، ووفرة لوسائلها، وإتيانا لأسباب نجاحها المادية والمعنوية، وهو ما لم تتوانَ الجمعية في توفيره في حفل افتتاح دار الحديث "فقد كان بدعًا من الاحتفالات في نظامه. وفي ضخامة العمل الباعث عليه، وفي جلال المناسبة والذكرى، وفي احتشاد الأمّة له، وفي علوّ الطبقة التي شهدته وتكلّمت فيه من العلماء والشعراء"[58] أما حفل ختم تفسير الشيخ ابن باديس فهو في غاية الرقي وحسن النظام، "فكان شاهدًا لما ذكرناه قريبًا من تطور هذه الأمّة في هذه الناحية، ودليلًا على أن نظام الاحتفالات بلغ في هذا القطر كماله، وعلى أن روح التأسّي في الصالحات حييت في هذه الأمّة

---

[52] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص328

[53] المصدر نفسه، ج1، ص328

[54] المصدر نفسه، ج3، ص305

[55] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص305.

[56] المصدر نفسه، ج1، ص329

[57] المصدر نفسه.

[58] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص334

وانتعشت، وأنها أصبحت تهتبل الفرص المواتية فتحسن الاختيار"[59] ويشير الإبراهيمي في معرض وصف المظاهر التي تميز بها الحفل إلى "الهدوء الشامل" على كثرة الحشود، "وإنما مرجع ذلك إلى التنظيم النفسي وإلى أدب القرآن وقد ملك أزِمّة النفوس."[60]

الاحتفالات التي على الأمة نشدانها لا بد أن تكون أصيلة في مبادئها، عصرية في وسائلها، فلا يمكن أن تتخلى عن قيمها، ولا أن تحيي احتفالاتها بقديم أساليبها وأنماطها، ويصف الإبراهيمي مشهدا ضمن فقرات الحفل المميز بقسنطينة إذ يقول: "وأما الاحتفال فكان ناجحًا إلى أقصى حدود النجاح، مؤثّرًا إلى أبعد غايات التأثير، ظهرت فيه جمعية "الشباب الفني"- على حداثة عهدها- بمظهر الكفاءة والتجديد وسلامة الذوق والانسجام بين العازفين في المظهر وبين القطع في المخبر"[61] فالعزف على "البيانو" وهو آلة عصرية جاء على سبيل المدح إذ وُظف لغاية نبيلة، ولم يجد الشيخ الإبراهيمي حرجا في ذلك مادام الأمر في حدوده التي يقتضيها كل مقام، وفي التأكيد على أنها مجرد وسائل يقول "وإن سرّها [الحفلة] وسحرها ليسا آتيين من الإطراب في العزف والإطراف في الأناشيد والإجادة في التمثيل والاتزان في الحركات، وإنما هما آتيان من شيء آخر وراء هذا كله، هو أمل الأمّة في أبنائها، كان صورة في الأذهان ومخيلة في الأدمغة"[62] فالممدوح بالأصالة هو المعنى والقيمة العليا للأمة الإسلامية حين حققت بعض ما تحمله في واقع أمرها.

وأما الاحتفال بالعيدين فإن للإبراهيمي مذهبا صارما في موضوع الوَحدة، دفعه ليحرر في الموضوع بشكل مكثف إما على سبيل الإرشاد وتوجيه الأمة، وإما على سبيل المطالبة والإصرار على فصل الدين عن الدولة والحكومة الفرنسية، التي كانت تستأثر بشؤون العيد والصيام وتتدخل في خصوصيات الأمة ومقوماتها فتعبث بها.

يقول الإبراهيمي على سبيل بيان معاني العيد وأسراره: "يضاعف جمال العيد وجلاله اتحاد المسلمين عليه، وكم لاتحاد المسلمين في أعيادهم من معان، وكم له من مزايا، أجلّها أنه يغذي قوة المسلمين الروحية، ويمد قوتهم المادية بأمداد التحابب والتعاطف، فالتعاون والتناصر"[63] لكنه واجه في ذلك

---

[59] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص334

[60] المصدر نفسه، ج1، ص340

[61] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص339

[62] المصدر نفسه.

[63] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص420

تعنتا وتصلبا من الحكومة وتماطلا وعرقلة لمسارات توحيد المسلمين في يوم الإفطار "وكدنا ننجح في توحيد الأمة على يوم واحد للصوم والإفطار، حتى يزدان جمال العبادة بجمال الاتحاد فيها، والتقرب إلى الله بتقارب القلوب فيه. ولكن الحكومة الجزائرية [الفرنسية] التي تريد دائما أن تجعل من الدين الإسلامي دعامة لسياستها، وسلاحا في أيدي ساستها"[64]فتمثل الشيخُ هنا الرجلَ المجاهد المقاوم الثابت على قيمة جمالية عالية تمثلت في السعي إلى وَحدة الأمة الإسلامية.

إن المساعي التي بذلها الإبراهيمي في سبيل الوصول إلى مبتغى توحيد الأمة على الصيام والإفطار لتتجاوز حد اعتبار الموضوع من الكماليات، فهي عند الشيخ مما لا ينبغي التنازل عنه أبدا، وكان فوق إصراره في المطالبة السياسية، يعاتب الأمة بعتاب جميل في معايدته، ومن ذلك قوله: "أيها المسلمون: عيدكم مبارك إذا أردتم، سعيد إذا استعددتم. لا تظنوا أن الدعاء وحده يردّ الاعتداء، إن مادة دعا يدعو، لا تنسخ مادة عدا يعدو؛ وإنما ينسخها أعدّ يعدّ، واستعدّ يستعدّ، فأعدّوا واستعدّوا تزدهر أعيادكم، وتظهر أمجادكم"[65] والملاحظ أنه لا يكاد يغفل في كل لحظة عن ربط الأمة بماضيها وحاضرها المشترك، الذي ينبغي أن تتحد عليه وتجتمع حوله في سبيل تحقيق نهضتها.

وإذا كان اجتماع الجزائريين على اليوم الواحد للصوم وللعيد هاجس زمانه، فإننا اليوم لا نجد الإشكال قائما بالحدة التي كانت عليه،[66] فإن السؤال الذي يمكن طرحه اليوم بخصوص الاحتفال في العيد: هل يمكن أن نستشرف للجزائري وَحدة في معايير الملبس والمظهر فيجتمع الشعب على الطرز الواحد والنمط الواحد ليزداد جمال العبادة؟ أم أن الوحدة هنا قد تكون تنميطا وقتلا للأذواق؟[67] وليس يخفى علينا أن الإبراهيمي في حديثه عن المعهد الباديسي يورد أهمية وحدة المعايير "ومحو

---

[64]آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص286

[65]آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص470

[66] يمكن أن نقول إن وَحدة الجزائريين على يوم العيد والصيام صار هو العادة الحميدة التي منّ الله بها علينا، بيد أننا لا ننكر وجود مثارات اعتراض تتجدد كل عام في المنهج المعتمد في تحديد بداية الشهر القمري، مما يجدر الالتفات إلى القضية وحسم مثار الخلاف فيها على مستوى لجنة الأهلة.

[67] هذا سؤال لا بد من مواجهته بالدراسات الجادة من جماعة من المتخصصين في علم الاجتماع والشريعة وفلسفة الجمال ليقدموا الرأي السديد في هذا، فإننا نشهد في جنوب الجزائر وتحديدا واد مزاب، ومن بعدهم تمنراست ذلك الألق في صور المعايدة باللباس الأبيض الموحد في معاييره، مما يمنح شعور الهيبة والجلال للمشهد الذي يرتسم، وفي المقابل نشهد في صلاة التراويح بجامع الجزائر مثلا ذلك الكشكول الرهيب لألوان وأذواق المصلين من أحمر لأخضر، ومن أصفر لأزرق، ومن شرقي لغربي، ويبقى هذا محض انطباع أولي تعوزه الدراسة والبحث العلمي الجاد للوصول إلى معالم موجّهة في الموضوع.

الفوارق الاجتماعية بينهم [التلاميذ] حتى يشعروا أنهم أبناء أمة واحدة يجب عليهم أن يعملوا لها كما عملت لهم، ولا يكون ذلك إلا بتسويتهم في المعيشة والسكنى، كما هم متساوون في الدراسة والتلقي، فإذا لم تستطع إدارة المعهد جمع تلامذته في مطعم واحد، على غذاء واحد، فلا أقل من جمعهم في مسكن واحد، وإذا حققت إدارة المعهد هذا، فهي عاملة على تحقيق ذاك بعون الله وفضل الأمة."[68] كما قال في معرض التأكيد على ذات الفكرة " ولو أننا تركنا لهم صورا شوهاء مختلفة المظاهر والأشكال لأضللناهم"[69] ولذلك يبقى السؤال المطروح حول وَحدة المعايير في المظهر قائما، ابتغاء الوصول إلى تنمية الشعور بعزة الأمة ومقوماتها.

خاتمة

مما سبق من مداخلتنا نسجل من الملاحظ ما يلي:

1. الإبراهيمي في مشروعه الإصلاحي سعى إلى إحياء الأمة وغرس القيم، فكل ما كتبه هو نص تربوي.
2. يُعد الذوق الجمالي محورًا أساسيًا في مشاريع الإبراهيمي التربوية والإصلاحية.
3. يربط الإبراهيمي بين الجمال وقيم الخير والمنفعة، مؤكدًا على أهميته في تهذيب النفس ورقيها.
4. تتجلى القيم الجمالية في البيئة التربوية على ثلاثة مستويات:

- تكريس القيم الراقية وتحسين العلاقات داخل الأسرة التعليمية.
- تحديث المقررات والمناهج بوسائل تعليمية متطورة وجذابة.
- استخدام جمالية العمران لتعزيز الذوق، توجيه السلوك نحو قيم أرقى تستشرف الوَحدة الفكرية.

---

[68] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص447

[69] المصدر نفسه، ج2، ص432

5. القدوة الحسنة قيمة جمالية تبرز قوة الأمة في الاعتزاز بأعلامها والوصل بين أجيالها.
6. جمالية الاحتفالات عند الإبراهيمي تتجلى في العناية بحسن المظهر ورفيع الغاية والمقصد.
7. ينتهج الإبراهيمي أسلوبًا بلاغيًا مميزًا، إذ يختتم جل الفقرات بـ"القواعد الكلية".

وإننا إذ لاحظنا ما سبق كله نحاول تسجيل هذه التوصيات:

- تحرير مشروع بحث جماعي في تحليل آثار البشير الإبراهيمي موضوعيا، وهذا مشروع عابر للتخصصات، لعل الله ييسر للإبراهيمي أن يتشرف مركز علمي أو مؤسسة بتبني فكره والتسمي باسمه.
- إنتاج مؤلفات تربوية تحوي القيم الجمالية التي دعا إليها الإبراهيمي، وتكون بمثابة سلسلة يعنى كل جزء منها بمجال خاص.
- إثراء البحث في قيمة وَحدة الأمة للإجابة عن السؤال المطروح في ثنايا المداخلة عن توحيد معايير اللباس والمظهر.

يقول الإبراهيمي: " وأخس المنازل للرجل منزلة القول بلا عمل، وأخس منها أن يكون الرجل كالدفتر يحكي ما قال الرجال وما فعل الرجال دون أن يضرب معهم في الأعمال الصالحة بنصيب، أو يرمي في معترك الآراء بالسهم المصيب." ولذلك نورد توصية ونسعى للعمل عليها كيلا نكون دفترا يوصي ولا يعمل، وهي: الشروع في مسرد القواعد الكلية لآثار البشير الإبراهيمي، ولعله مشروع تسنده جماعة ليكون أكثر إحكاما ورصانة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصدر:

محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولى،1997

المراجع:

- حسان عبد الله، **التربية الجمالية المفهوم-الأبعاد-الوظائف**، مجلة أبحاث ودراسات تربوية، العدد الثامن: السنة الرابعة، 2019م
- مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي، **شروط النهضة**، دار الفكر، دمشق، 1986م.
- محمد باباعمي، **القواعد الأربعون للعشق الإبراهيمي**، مؤلَّف لم يصدر بعد. 2024/03/27.
- محمد باباعمي؛ **في حب كلام الله**، دار كتابك، الجزائر، 1438 هـ / 2018 م
- محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 1965-2001م.